

الالتفات في القرآن

بقلم : الشاذلي الهيشري

I . المقدمة :

I . 1 . للضمير في النص القرآني وجوه من الاستعمالات متنوعة ، يجري بعضها على مخالفة قواعد اللغة من مطابقة وعودة على سابق وإضمار بدل الإظهار وإظهار بدل الإضمار وغيرها . وهي مخالفة مقصودة يتوسل بها إلى مقاصد ودلالات . وقد حصرت كتب اللغة وعلوم القرآن هذه الاستعمالات ولكنها لم تتوسع في تفسيرها وتوضيح الأسباب الداعية إليها (1) .

ومن أبرز استعمالات الضمير على وجه المخالفة ضربٌ من التجوُّز عمَّ القرآن خاصة وتعدّدت نماذجه في الشعر القديم ويعرّف في كتب البلاغة بالالتفات . وقد لاحظ علماء اللغة أن العرب يستكثرون منه (2) وأن اقتحام

(1) انظر مثلاً : الزركشي البرهان في علوم القرآن ج 4/24 . . . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم منشورات المطبعة العصرية - صيدا بروت ط 2 - 1972 .

(2) السكاكي - مفتاح العلوم ص 86 : « أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الأرواح فيخالفون بين أسلوب وأسلوب » . مطبعة التقدم العلمية - مصر .

سبيله هو ضربٌ من الشجاعة لهذا وضعه بعضهم ضمن باب شجاعة العربية (3) .

I . 2 . الالتفات وإن كان ينحصر في الرأي المشهور في التصرف في الضمير من حيث الحضور والغيبة ، فإنه يتسع في غير هذا الرأي إلى مفاهيم أخرى منها التصرف في الفعل من جهة الزمن (4) ومنها الانصراف عن معنى إلى آخر (5) ومنها تأكيد الكلام بمثل أو دعاء (6) ومنها التجريد (7) . . . إن هذه المفاهيم المتعددة لمصطلح الالتفات يتعذر التزامها جميعاً في بحث واحد لذلك فقد تقيّدنا في هذا العمل بالمفهوم الشائع في كتب البلاغة وهو العدول عن ضمير أصلي إلى ضمير آخر يغيّره في الحضور أو الغيبة وذلك لغلبة هذا المفهوم على الاستعمال القرآني .

I . 3 . ولقد اخترنا القرآن مدونة لهذه الدراسة لكثرة الالتفات فيه وهي كثرة تفوق ما توفّر في أي نص من النصوص الشعرية أو النثرية . ففي

(3) ابن الاثير - المثل السائر ص 171 : « إنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الاقدام وذلك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ويتورّد مالا يتورّده سواء وكذلك هذا الالتفات في القرآن » . مطبعة نهضة مصر .

- انظر كذلك - عز الدين اسماعيل - جماليات الالتفات . نسخة مصوّرة من بحث مرقون شارك به صاحبه في ندوة موضوعها قراءة جديدة لثرائنا النقدي نظمها النادي الأدبي الثقافي بجدة في نوفمبر 1988 .

(4) نحو قوله تعالى : « ويوم يُنْفَخُ في الصّور ففزع من في السماوات ومن في الارض » بمعنى يفزع - سورة النمل آية 87 .

- انظر - عز الدين اسماعيل - جماليات الالتفات ص 27 .

(5) نحو قوله تعالى : « عجبوا أن ق . والقرآن المجيد بل عجبوا ان جاءهم منذرٌ منهم » ق ر آيتان 1 و 2 .

(6) نحو قول العرب : قصم الفقرُ ظهري والفقرُ من قاصماتِ الظهر .

(7) ابن الاثير - المثل السائر ص 423 : « فأما حدّ التجريد فإنه إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه » .

الشعر القديم مثلاً يستخدم الشاعر الالتفاتَ لِمَا، وذلك في البيت أو البيتين لا غير ، وقد لا يستخدمه مطلقاً حتى في أطول القصائد . أمّا القرآن فقد حفل بهذه الظاهرة البلاغية والتزمها أحياناً أكثر من مرة في السورة الواحدة .

وقد اهتمت كتب التفسير بالالتفات (8) ولكن اهتمامها به انحصر في أمثلة مستقلة في سياقات معلومة ، ولم تكن غاية المفسرين التأليف بين هذه الأمثلة والنفاذ إلى حقيقة الالتفات ، وأصل التركيب فيه ، وطرقه المتداولة في القرآن وشروطه التي يتحقق بها . وهي جوانب أساسية كانت من غايات دراستنا .

I . 4 . وقد اعترضتنا في إنجاز هذا العمل صعوبات تعود في أغلبها إلى خصوصيات النص القرآني . فالالتفات ظاهرة نصية تتحقق في الغالب في مجموعة من الجمل تصل بينها روابط لفظية ومعنوية منها روابط الإضمار على وجه الخصوص (9) والنص القرآني وإن كانت أكثر لطائفه « مودعة في الترتيبات والروابط » كما يقول فخر الدين الرازي (10) فإنّ الروابط بين الآيات قد تنعدم إذا كانت أسباب نزولها مختلفة (11) وإذا اختلفت أسباب النزول تغير الخطاب وتغيرت الضمائر ، فهل يُعتبر ذلك التفاتاً ؟ .

والنص القرآني تقرأ بعض آياته بطرق مختلفة ، فيتحقق الالتفات أحياناً بقراءة وينعدم بأخرى فبأيّ القراءات نأخذ ؟ .

(8) انظر على سبيل المثال : الكشف للزمخشري والتحرير والتنوير لابن عاشور .

(9) منصف عاشور . الحياة الثقافية عدد 5 . 1990 ص 63 : « شرح الاسم » .

(10) الزركشي - البرهان في علوم القرآن ج 35/1 .

(11) الزركشي - البرهان في علوم القرآن ج 37/1 : « قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام (. . .) يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحدٍ مرتبطٍ أوله بآخره ، فان وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر » .

والنص القرآني قائم في أغلبه على الجمل المقولة وبه مجموعة كبيرة من الجمل الواقعة بعد أن التفسيرية وهي جمل تقتضي تغير الضمير فهل يعتبر تغير الضمير فيها التفاتاً ؟ .

إن هذه التساؤلات تمثل جانباً من محاور الاهتمام في هذه الدراسة إلى جانب محاور أخرى تتصل بالالتفات ذاته ، وبخصائصه التركيبية ، وطرق إنجازه وفوائده البلاغية .

I . 5 . وقد رأينا أن نقدم هذا العمل في قسمين كلاهما متعلق بالآخر ، القسم الأول نظري بحث ، والثاني تطبيقي يخص القرآن وقضاياها الناتجة عن دراسة الالتفات فيه . وقد ألفنا في الخاتمة بين القسمين وجمعنا فيها أهم الاستنتاجات .

وإذا كان الالتفات مفهوماً بلاغياً قديماً والنص القرآني أثراً قديماً ، فإننا قد استعنا في تقديم المعطيات القديمة ببعض الدراسات الحديثة في الإظهار والإضمار . وفي إنشاء النص وفي تحديد علاقة المتكلم بكل من المخاطب والغائب .

ثانيا : دلالاته على مقولات الصرف كالجنس والعدد والحضور والغيبة وخلوه في ذاته من الدلالة المعجمية (16) التي يكتسبها بعودته على مفسره (17) .

ثالثا : إبهامه وغموضه فيرتبط لذلك باسم هو من ناحية مفسره في مستوى الكلام وعلاقته به لا تتعدى النص أي علاقة مقالية وهو من ناحية أخرى مرجعه في مستوى الواقع وعلاقته به خارج النص أي علاقة مقامية . والعلاقتان يوضحهما التمثيل التالي :

علاقة مقالية	علاقة مقامية
المفسر	الضمير
النص	النص
الضمير	المرجع

II . 1 . 2 . والضمير من أهم العناصر التي تدخل في تركيب النص ويجري استعماله العادي على مُسايرة قواعد المطابقة . فتكون علاقته بالمفسر حسب المقولات التصريفية من جنس وعدد وحضور وغيبة . وبمقتضى ذلك لا تعود ضمائر التأنيث مثلاً على الاسم المذكر ولا ضمائر الإفراد على الاسم المثنى

(16) " Les anaphoriques n'ont par eux-mêmes aucun sens tant qu'ils ne sont pas inclus dans une phrase. En d'autres termes, les anaphoriques sont des mots vides sur le plan statique. Mais il deviennent automatiquement pleins sur le plan dynamique ". F. Corblin - Revue Puébécquoise de linguistique vol, 5 n° 1 - 1985.

(17) اخترنا لفظ مفسر لمقابلة Interprétant أو Antécédent ويقترح Tesnières تسمية ثالثة هي Source : Sémantique انظر :

أو الاسم الجمع (18) ولا يرجع الضمير كذلك على مفسرين في نفس الوقت ولا يتصل في المقابل ضميران مختلفان بمفسر واحد . . . إلى غير ذلك من الشروط التي يتقيد بها استعمال الضمير في الكلام العادي (19) .

واستعمال الضمير استعمالاً عادياً هو بنية سطحية رئيسية ناتجة عن بنية عميقة ممكن استعمالها في حالة التأكيد (20) والتمثيل التالي يوضح البنيتين :

إظهار ← إظهار ← إظهار . . .	المفسر ← إضمار ← إضمار
النص : بنية عميقة ممكنة في حالة التأكيد .	النص : بنية سطحية عادية

II . 1 . 3 . ولكن اللغة تجوّز الخروج عن الشروط في ما يسمّى بالشواذ ، من ذلك الشذوذ في استعمال الضمير بتجاوز المقولات التصريفية

(18) م . ص . الشريف : « وليس بعيداً عن هذا عدم إمكان تعويض الضمائر بعضها ببعض داخل النص الواحد . فهو يعود إلى قواعد الإضمار الموجودة ضمناً في أغلب الأنحاء إن لم توجد صراحة في بعضها الآخر . وقد تدخل في الأمر اعتبارات أخرى منها المستوجبات الدلالية العامة والمفاهيم المنطقية المجاوزة للجملة ومنها أنك لا تستطيع أن تقول ذهب في نص عوض ذهبوا لسبب بسيط لا يرجع إلى النص بقدر ما يرجع إلى أن السياق غير اللغوي أو المقام حسب مصطلح القدامى يفرض عليك ضمير الجمع لوجود جمع فيه » خواطر شك نظرية في كفاية القراءة اللغوية ص 245 ، ندوة القراءة والكتابة - منشورات جامعة تونس الاولى - تونس 1988 .

(19) انظر الزركشي - البرهان في علوم القرآن ج 4/24 وما بعدها .

(20) م . ص . الشريف : فالنص جاء عليّ وتكلّم عليّ وناقشنا عليّ لا يكون إلّا متى كان السامع يشك في مجيء علي . أما في الحالات العادية فنقول : جاء عليّ وتكلّم وناقشناه » خواطر شك نظرية في كفاية القراءة اللغوية ص 245 .

المحددة لعلاقته بالمفسر . ومظاهر هذا الشذوذ كثيرة في العربية (21) نكتفي بذكر بعضها :

وردت في القرآن نماذج عديدة من التصرف في الضمير من حيث العدد إفراداً وتثنية وجمعاً وذلك باستعمال الاحتمالات الستة الممكنة ، وهي تعويض المفرد بالمتنى والجمع وتعويض المتنى بالمفرد والجمع وتعويض الجمع بالمفرد والمتنى (22) ونذكر من أمثلة ذلك :

- أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ (يونس 78) .

- فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (طه 117) .

- وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس 78) ... (23) .

ومن مظاهر التصرف في استعمال الضمير عودته على لاحق أو الإظهار بعد الإضمار . وشواهد ذلك كثيرة في القرآن منها :

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (طه 67) .

وفي الشعر العربي :

وَلَقَدْ يُدَاسُ الذُّبُّ فِي فَلَوَاتِهِ
وَيَهَابُ بَيْنَ قِيُودِهِ الصِّرْعَاغُ (شوقي)

(21) انظر مظاهر هذا التجوز في البرهان في علوم القرآن ج 4/24 - 42 .

(22) انظر في هذا الأمر البرهان في علوم القرآن ج 3/335 .

(23) أصل الآية : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » وفيها انتقال من المتنى إلى الجمع ثم إلى الجمع ثم إلى المفرد .

ومن مظاهره أيضاً عودة الضمير على مفسر بعد ذكر مفسرين :

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ (البقرة 45) .

وقد أباح العرب الاستغناء عن ذكر المفسر لوجود قرينة تدل عليه .

قال حاتم الطائي يخاطب امرأته :

أَمَاوِيٍّ مَا يُغْنِي الشَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا خُشِرَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فقد أهمل ذكر النفس بما يدل عليها وهو الفتى لأنها بعض منه .

وأباحوا أيضاً حذف الضمير في الابتداء . قال المتنبي يمدح كاتباً :

مَنْ يَهْتَدِي فِي الْفِعْلِ مَا لَا تَهْتَدِي فِي الْقَوْلِ حَتَّى يُفْعَلَ الشُّعْرَاءُ

فالبيت خبر لضمير محذوف و« تقدير البيت : هو الذي يهتدي في الفعل

إلى ما لا يهتدي الشعراء إليه في القول حتى يفعل هو فضمير يفعل يعود إلى مَنْ والشُّعْرَاءُ فاعل تهتدي » (24) .

II . 1 . 4 . وتجلّى أبرز مظاهر الشذوذ في استعمال الضمير في

العربية في التصرف فيه من حيث الحضور والغيبة . قال تعالى :

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ

شَيْءٍ (الأنعام - 99) .

(24) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ج 1/148 . ط دار الكتاب العربي بيروت 1986 .

ففي هذه الآية ضميران بارزان يعودان على مُفسّر واحد هو الله ، وقد دلّ الأوّل على الغيبة (هُوَ) والثاني على التكلّم (نَا) ويمكن توضيح هذه البنية السطحية الشاذة بهذا التمثيل :

الله → هُوَ (إضمّار 1) نَا (إضمّار 2)
النصّ .

وقد كان السياق يقتضي أن يتوحّد الضميران في الغيبة على هذا النحو :
« وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ (هُوَ) بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ »
لهذه البنية السطحية الأساسية بما يلي :

الله → هُوَ (إضمّار 1) هُوَ (إضمّار 1)
النصّ .

إن البنيتين السطّحتين الشاذة والأساسية ناتجتان عن بنية سطحية عميقة
ممكنة في حالة التأكيد :

« وَاللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ اللَّهُ بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ » (25) .

الله الله (إظهار) الله (إظهار)
← النصّ

وقد سمّى العربُ التباين في الضمير (البنية السطحية الشاذة) إلتفاتاً ولاحظوا كثرة وروده في القرآن (26) فما هو الإلتفات ؟ .

II . 2 . مفهوم الالتفات : لغة واصطلاحاً .

II . 2 . 1 . الالتفات - لَعَةً - هو مصدر التفت والتفت إلى الشيء صرف وجهه إليه (27) . وأصل الالتفات ليّ الشيء عن الاستقامة والصواب . وقد ذكر ابن الأثير : « وحقيقته مأخوذة من التفت الإنسان عن يمينه وشماله . فهو مقبل تارة كذا وتارة كذا » (28) .

تحصر التحديدات السابقة المعنى اللغوي للالتفات في حركة عضوية تتمثل في عدول الشخص عن النظر في اتجاهه الأصلي وتحويله البصر إلى اتجاه ثانٍ مغاير للأول ، بطريقة مفاجئة . وإلى هذا المعنى اللغوي يَعُودُ مفهوم الالتفات اصطلاحاً . فقد شبه العربُ حالة المتكلم وهو يحوّل وجهه الكلام من خطاب الحضور مثلاً إلى خطاب الغيبة بحالة الشخص ينظر إلى شيء محدّد ثم يلتفت عنه ، وأطلقوا على هذا التحوّل في صلب اللغة مصطلح الالتفات الذي أطلقوه في الأصل على الحركة العضوية .

(26) ابن عاشور - التحرير والتنوير - المقدمة 10 ص 109 - الدار التونسية للنشر 1984 .

(27) لسان العرب - المجلّد الثاني ص 84 دار صادر بيروت .

(28) - ابن الأثير - المثل السائر - القسم الثاني ص 17
عز الدين اسماعيل - جماليات الالتفات - التعريف اللغوي ص 2 .

II . 2 . 1 . وفي الالتفات من حيث الاصطلاح موقفان : خاص وعام . خاص ذهب إليه الجمهور وعام ذهب إليه الزمخشري وتبعه فيه السكاكي .

يرى الجمهور أن الالتفات هو تحويل الضمير من سياق أصلي كالغيبة مثلاً إلى سياق مغاير كالتكلم أو الخطاب . هو « التعبير عن معنى بطريقة من الطرق الثلاثة من التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بآخر منها أي بعد التعبير عن ذلك المعنى بطريقة آخر من الطرق الثلاثة » (29) ومثاله قوله تعالى من سورة الروم :

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوْا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

(الروم الآية 34)

أسند الفعل الأول من هذه الآية إلى ضمير الغيبة الجمع المذكر العائد على الكفار ، وعُدِلَ عنه في قوله تعالى « فَتَمَتُّوْا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » إلى ضمير الخطاب الجمع المذكر العائد كذلك على الكفار .

فالعدول من الغيبة إلى الخطاب أو العكس ، ومن الخطاب إلى التكلم أو العكس ومن الغيبة إلى التكلم أو العكس يُعرَف عند الجمهور بالالتفات . وهو لا يكون في جملة ابتدائية لأن العدول هو انحراف عن الأصل والانحراف لا يكون ابتداءً كلام بل يكون استثناءً تابعاً لكلام سابق .

II . 2 . 3 ويرى الزمخشري والسكاكي أن الالتفات أعم من العدول الاستثنائي عن ضمير إلى آخر لأنه على رأيهما كما يكون استثناءً يكون ابتداءً كأن

(29) التهانوي - كشف اصطلاحات الفنون ج 5/1290 - المكتبة الاسمية - بيروت 1966 .

يُخاطب الإنسان نفسه بضمير الخطاب في مطلع القصيدة دون أن يسبقه التعبير عن النفس بضمير التكلّم وقد تمثلا بأبيات لامرئ القيس :

نَطَاوُلُ لَيْلِكَ بِالْإِثْمِِدِ وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلِيلَةَ ذِي الْعَابِرِ الْأَزْبِدِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبِيٍّ جَاءَنِي وَخَبَرْتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ

فقد عمد الشاعر من البيت الأول إلى ضمير الخطاب عدولاً عن ضمير التكلّم الذي رجع إليه في البيت الثالث . فالالتفات - على رأي الزمخشري والسكاكي - هو بصورة عامة نقل الكلام من أسلوب يتوقّعه السّامع إلى أسلوب لا يتوقّعه دون التقيد بأسلوب أصلي يستخدم أولاً ثم يعدل عنه . ولذا يعتبر من الالتفات أيضاً أن ينتزع المتكلم من ذاته شخصاً وهمياً يخاطبه على نحو ما اعتاد شعراء العربية . وهو ما يسمّيه الجمهور تجريداً (30) .

II . 2 . 4 يبدو أنّ موقف الزمخشري والسكاكي أعمّ من موقف الجمهور وأبعد نظراً ، فهما لا يقيدان الالتفات بتركيب محدّد يقوم على أسلوب أصلي ملفوظ يعدل عنه إلى أسلوب مغاير وإنّما يتوسّعان في هذا المفهوم إلى ما ليس عدولاً عن ضمير إلى آخر فيشمل الالتفات على رأيها كثيراً من الأشعار خاصة في مطالع القصائد وهو يشمل كذلك كتابات طه حسين ومنها خاصة الأيام . ففي هذا الأثر يجرد الكاتب من ذاته شخصاً يسند إليه الأحداث بطريقة الغيبة ممّا يمكن اعتباره التفاتاً .

ورغم ما في رأيها من التوسع المفيد فإننا لا نجد لهذا الرأي أمثلة في القرآن وهو المدوّنة التي يقوم عليها هذا البحث وذلك لاستحالة أن يخاطب الله

(30) انظر الإحالة رقم 7 .

نفسه ، ولهذا السبب فإننا نكتفي في هذا العمل بالمفهوم الشائع للاتفات الذي يلتقي فيه الزمخشري والسكاكي بغيرهما من الجمهور .

II . 3 . شروط الالتفات :

II . 3 . 1 . لم تجتمع في كتاب من كتب البلاغة الشروط المقيدة لمفهوم الالتفات ، وقد أدى ذلك إلى اختلاف المفسرين في إثبات الالتفات أو نفيه في بعض الآيات القرآنية . ولهذا السبب فقد اجتهدنا في جمع شروطه لتجنب الوقوع في اختلافاتهم .

إن مفهوم الالتفات يظل في رأينا غير دقيق ما لم يتقيد الضميران الأصلي والمتنقل اليه بالعودة على مفسر واحد . ويفهم من وحدة المفسر في الالتفات أن المنشئ يعبر عن المعنى الواحد بضميرين أولهما أصلي وثانيهما طارئ يرتبط والأول بنفس المفسر وإن كان يختلف وإياه في وجه الخطاب حضوراً أو غيبة . ففي بيت المتنبي :

أَنْتَ الْحَبِيبُ وَلَكِنِّي أَعُوذُ بِهِ
مِنْ أَنْ أَكُونَ مُحِبًّا غَيْرَ مُحْبُوبٍ

يتوفر ضميران من جدولين مختلفين هما الخطاب والغيبة ويتطابقان في العودة على مفسر واحد هو كافور الإخشيدي . وكان مقتضى الظاهر أن يقول :

أَنْتَ الْحَبِيبُ وَلَكِنِّي أَعُوذُ بِكَ
مِنْ أَنْ أَكُونَ مُحِبًّا غَيْرَ مُحْبُوبٍ

II . 3 . 2 . وقد يلتبس الأمر على الدارس فيتوهم وجود الالتفات في بعض الآيات لمجرد تغير الضمير من أسلوب إلى أسلوب . فإذا ما أمعن النظر

تبيّن له أنّ الضمير يعود إلى اختلاف المفسّر ، وأنه في الواقع حيال ضميرين متمايزين يرتبط كل منهما بمفسر معين لاحتياال ضميرين هما في الاصل إضماران لاسم ظاهر وحيد . وفي الآية التالية من سورة القيامة توضيح لهذه الفكرة :

يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْمَفْرُ كَلًّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ

(القيامة 10 - 11 - 12) .

إنّ لفظ « الانسان » معتبر ككل الأسماء الظاهرة من قبيل الغائب وقد تلاه التعبير بالمخاطب في قوله تعالى : « إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » والغائب ليس هو المخاطب في هذه الآية لأنها يرتبطان لا بمفسر واحد كما يقتضي شرط الالتفات بل بمفسرين مختلفين هما الانسان والرسول (ﷺ) .

وقد أضيف لفظ « رب » إلى ضمير الرسول « ك » لما في ذلك من الاشعار بعنايته تعالى به (ﷺ) . وعلى هذا فاختلف المفسر دلّ على انعدام الالتفات .

وقد جاء في الإتيان تعليقا على قوله تعالى : « وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (يس - 22) هَذَا الرَّأْيُ : « جَعَلُوا هَذِهِ الْآيَةَ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ وفيه نظر لأنه إنما يكون منه إذا قصد الإخبار عن نفسه في كلتا الجملتين » (31) ويستنتج منه أن وحدة المفسر شرط لازم في الالتفات . جاء في كشاف التهانوي : « شرط الالتفات بهذا المعنى أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر الى المنتقل عنه » (32) ولم يعتبر الزركشي في البرهان خطاب الشخص ثم العدول إلى غيره من الالتفات (33) .

(31) السيوطي - الإتيان في علوم القرآن ج 3/253 تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط 3 - 1985 - نشر وتوزيع دار التراث - القاهرة .

(32) التهانوي - كشاف اصطلاحات الفنون ج 5/1289 .

(33) الزركشي البرهان في علوم القرآن ج 2/245 .

II . 3 . 3 . وقد لا تكفي وحدة المفسر للضمير لتحقيق الالتفات .

قال تعالى في سورة التوبة :

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَعْظَمُ
دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ . وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ
وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا . إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ وَإِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى
الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ « (التوبة 20 الى 23) .

استعمل القرآن في الآيات الثلاث الأولى ضمير الغيبة وأصفاً المؤمنين
بثلاث صفات هي الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال مبشراً لهم بثلاثة هي
الرحمة والرضوان والجنان . ثم تخلّى عن الغيبة واستعمل أسلوب الخطاب
منتقلاً إلى غرض آخر هو نهي المؤمنين عن اتخاذ الآباء والإخوان والكافرين
أنصاراً وأعواناً .

لقد تحقق في هذه الآيات نقل الضمير من جدول الغيبة إلى جدول
الحضور (الخطاب) كما تحققت فيه وحدة المفسر (المؤمنون) . ومع ذلك فإننا
لا نرى فيها التفاتاً والسبب فيه أن تغير الضمير قد حصل لتغير الغرض ،
ومتى تغير الغرض إنعدم الالتفات . جاء في التحرير والتنوير التعليق التالي على
الآية 15 من سورة المزمل (34) : « ولا يُعَدُّ هذا الخطاب من الالتفات لأن
الكلام نقل إلى غرض غير الغرض الذي كان قبله » (35) . وجاء فيه هذا

(34) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ، إِنَّا لَذُنُوبًا أُنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا يَوْمَ
تُرْجَفُ الْأَرْضُ رُجْفًا وَتُجْبَلُ السَّيَالُ كَيْفًا مَهِيلاً ، إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ
رَسُولًا (المزمل 11 - 15) .

(35) ابن عاشور - التحرير والتنوير ج 29/292 .

التعليق أيضاً على الآية 36 من سورة القلم (36) : « شرط الالتفات أن يتغير الضمير في سياق واحد » (37) .

II . 3 . 4 . وقد قيّد الزمخشري الالتفات بشرط تركيبى وهو أن يكون في جملتين (38) ولكن البحث أظهر أنه يكون في جملة واحدة ، وفي جملتين ، وفي أكثر من جملتين أيضاً (39) .

فمما حصل منه في جملة واحدة قوله تعالى :

- إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ (الفتح 1) .

- إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ . (فاطر 29) .

ومما حصل منه في جملتين :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (مريم 89) .

وفي ثلاث جل :

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ . فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَابِيَةً . إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (الحاقة 10 - 11) .

(36) أفنجل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون (القلم 35 - 36) .

(37) ابن عاشور - التحرير والتنوير ج 92/29 .

(38) التهانوي - كشف : « شرطه أن يكون في جملتين . صرح به صاحب الكشف » .

(39) L'anaphore et son interprétant peuvent appartenir soit à la même phrase soit à deux phrases successives; c'est cette dernière possibilité qui permet de considérer l'anaphore comme une relation potentiellement transphrastique ". Ducrot et Todorov Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage page 358.

وفي أكثر من ذلك :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ، ثَانِي عِظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ . وَنُذِيْقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . وَذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ . وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » . (الحج - الآيات 8 - 9 - 10) .

وعلى هذا فالالتفات لا يتقيد بشرط تركيب معين وهو ظاهرة نصية لا نحوية (40) يقوم على إحلال ضمير محل ضمير آخر دون أن يتغير التركيب وهو أيضاً لا يتجلى في عدد محدد من الجمل فكما يكون في الجملة الواحدة يكون في الجملتين ويكون في أكثر من ذلك .

II . 4 . طرق الالتفات وأنواعه :

II . 4 . 1 . الالتفات أسلوب خطابي يتجلى في ست طرق نظرية

تحصل بالتبادل بين جداول التكلم والخطاب والغيبة (41) وهي :

- من التكلم الى الخطاب : لم يرد في القرآن مثالاً واحداً لهذه الطريقة وسنعمل ذلك في القسم التطبيقي من هذه الدراسة .

- من الخطاب إلى التكلم : لم نجد في القرآن مثلاً لهذه الطريقة وسنذكر التعليل في القسم التطبيقي (42) .

- من التكلم إلى الغيبة ومثاله قوله تعالى :

« وَإِذْ بَدَلْنَا آيَةَ مَكَانَ آيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ » (النحل 101) .

(41) انظر طرق الالتفات أو أشكاله حسب ابن الاثير في : عز الدين اسماعيل : جماليات الالتفات ص 5 .

(42) انظر الفقرة III . 1 . 6 والفقرة III . 1 . 7 من القسم التطبيقي .

- ومن الغيبة إلى التكلم ومثاله :

« اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا . إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ » (يونس 21) .

ومن الخطاب إلى الغيبة ومثاله :

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (النحل 1) .

ومن الغيبة إلى الخطاب ومثاله :

« فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا .

(الإسراء 63) .

II . 4 . 2 . مكنا البحث في الالتفات في النص القرآني من استجلاء

أنواعه ، وهي في نظرنا ثلاثة :

أولاً : الالتفات السريع الخاطف وهو المتحقق في النص الواحد مرة

واحدة ومثاله ما جاء انتقالاً من الغيبة إلى الخطاب :

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ » (الأنعام 32) .

ثانياً : الممتد : وهو الذي تتكرر صورة منه في جمل متعاقبة ومثاله

الانتقال من الاسم المظهر (ربك) إلى ضمير المتكلم المعظم (نحن) ثم الانتقال

من الاسم المظهر (الله) إلى ضمير المتكلم جلّ وعلاً وذلك في الآيات الثمانية

الأولى من سورة الأعلى :

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي

أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ، سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ

يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى » (الأعلى من 1 إلى 8) .

ثالثا : الالتفات المتنوع المتداخل : وهو الذي تتكرر أكثر من صورة منه في جمل متعاقبة ومثال :

« فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً . إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ » (الحاقة 10 - 11) .

فقد تداخل في هذا المثال التفتان ، الأول بالانتقال من الحديث عن العصاة إلى مخاطبتهم والثاني بالانتقال من ضمير الغيبة العائد عليه تعالى إلى ضميره تعالى في حالة التكلم .

III القسم التطبيقي

III . 1 طرق الالتفات المستخدمة في القرآن :

III . 1 . 1 . يحصل من التبادل بين ضمائر التكلم والخطاب والغيبة ستة أزواج من الضمائر تحدد الطرق الست النظرية الممكنة في الالتفات (43) وقد تحقق منها في القرآن أربع طرق فقط هي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والالتفات من الخطاب إلى الغيبة من ناحية ، والالتفات من الغيبة إلى التكلم ثم الالتفات من التكلم إلى الغيبة من ناحية أخرى . ولم يتحقق في القرآن الالتفات من التكلم إلى الخطاب والالتفات من الخطاب إلى التكلم لأسباب نوضحها في فقرات لاحقة (44) . وفي الجدول التالي إحصاء لاستعمالات هذه الطرق في القرآن :

(43) انظر القسم النظري الفقرة II . 4 . 1 .

(44) انظر الفقرتين III . 1 . 6 و III . 1 . 7 .

طرق الالتفات	عدد الاستعمالات
الالتفات من الغيبة الى الخطاب	54
الالتفات من الخطاب إلى الغيبة	37
الالتفات من الغيبة الى التكلم	38
الالتفات من التكلم الى الغيبة	28
الالتفات من التكلم الى الخطاب	لا شيء
الالتفات من الخطاب الى التكلم	لا شيء

III . 1 . 2 يُظهر الجدول السابق أنَّ الالتفات بطرقه الأربع قد استعمل في القرآن مائة وسبعاً وخمسين مرّة وفي ما يربو عن ثلثمائة آية على أقلّ تقدير اعتباراً إلى أنه ظاهرة نصّية يرد في أغلب حالاته في آيتين أو ثلاث آيات أو أكثر وقلما يرد في آية واحدة ، ولقد تقيّدنا في هذا الاحصاء بالآيات التي ظهر فيها الالتفات بوضوح وتركنا آيات كثيرة توهم أنها على أسلوب الالتفات ولكنها في واقع الامر ليست على هذا الأسلوب .

لقد أسقطنا من هذا الاحصاء آياتٍ تتضمن في الظاهر انتقالاً من الغيبة إلى الخطاب . ولكن المتمعن فيها يرى أن أفعالها المسندة إلى ضمائر الخطاب متعلقة بعنصر محذوف هو فعل القول أو ما في معناه من أفعال الحكاية : « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » (الجاثية 31) .

إن الخطاب في قوله تعالى : « أَفَلَمْ تَكُنْ آتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » متعلق بفعل قول محذوف هو جواب « أما » الشرطية . وقد دلت عليه فاء الربط بعد الهزمة وهي عنصر لازم للجواب مقترن به . فأصل الآية : « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُ لَهُمُ اللَّهُ : أَلَمْ تَكُنْ آتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » . فالجملة الموهمة بحصول الالتفات هي جملة مقول قول محذوف وهي ليست من الالتفات . ومثل هذه الجملة كثير في القرآن (45) .

III . 1 . 3 . وتشبه الجملة الواقعة بعد « أن » التفسيرية جملة مقول القول في التباسها بأسلوب الالتفات وهي ليست منه . قال تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ (النمل 45) إِنَّ جَمَلَهُ : « أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ » مسندة إلى ضمير الخطاب ، وقد وردت بعد الغيبة وفي ذلك ما يوهم أنها من الالتفات . وفي الواقع هي جملة مقول قول اعتباراً إلى أن : « الفعل الذي تفسره وتعبر عنه فيه معنى القول وليس بقول » (46) وجملة مقول القول لا تعتبر من الالتفات كما جاء في الفقرة السابقة سواء أذكر القول أم حذف ، وكذلك الحال في جملة « أن » التفسيرية .

III . 1 . 4 . ومن الآيات ما يحتمل قراءتين ، يحصل بإحداهما الالتفات ويبطل بالأخرى . فاعتمدنا منها قراءة الجمهور سواء

(45) من ذلك قوله تعالى : « كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » (الحج 22) .

(46) ابن يعيش - شرح المفصل ج 7/142 - عالم الكتب - بيروت .

حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَا إِنَّهُمْ يَتُنَوَّنَ صُدُورُهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (هود الآيات 1 إلى 5) .

وهذا التحول في الضمير من قوله تعالى : « أَلَا إِنَّهُمْ يَتُنَوَّنَ صُدُورُهُمْ » يفسره سبب النزول ، فقد ذكر ابن عباس أنها « نزلت في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول الله ويحلف أنه ليحبّه ويضمّر خلاف ما يظهر » (49) . إذن فأختلاف المفسّر في هذه الآيات يخلّ بشرط من شروط الالتفات وهو وحدة المفسّر . لذلك فليس في هذه الآيات التفات من الغيبة إلى الخطاب . ويمكن فيه أيضًا في كل آية استوجب سبب نزولها تغيير الخطاب فيها .

III . 1 . 6 . والقرآن - حسب ما جاء في الجدول - خالٍ من ضربين من الالتفات . أولهما أكدته كتب البلاغة وهو الانتقال من الخطاب إلى التكلم ومثّل له بشاهد شعري حين أعوزها الشاهد القرآني (50) . أمّا الثاني القائم على الانتقال من التكلم إلى الخطاب فقد قدّم له البعض مثالين من القرآن هما في رأينا ليسا من الالتفات .

فقد ذكر في المثال الأوّل قوله تعالى :

« وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (يس 22) . على أساس أن الأصل في التركيب : وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ أَرْجَعُ .

(49) انظر : محمد على الصابوني - صفوة التفاسير ج 88/5 دار القرآن الكريم بيروت ط 1 1981 .

(50) السيوطي - الانتقان : « ومن الخطاب الى التكلّم لم يقع في القرآن ومثّل له بعضهم بقوله فأقض ما أنت قاضٍ ثم قال إنا أمّرنا برّبنا . وهذا المثال لا يصحّ لأن شرط الالتفات أن يكون المراد به واحدًا » . ج 254/3 .

ينتمي الضميران في هذا المثال الى جدول واحد وهو الحضور والالتفات لا يكون إلا انتقالاً بالضمير من جدول إلى آخر . ولا يعود الضميران من ناحية أخرى على مفسر واحد ومن شروط الالتفات وحدة المفسر وقد عبّر عنه السيوطي بما يؤيد هذا الرأي : « جَعَلُوا هذه الآية من الالتفات وفيه نظر لأنه إنما يكون منه إذا قصد الإخبار عن نفسه في كلا الجملتين وهنا ليس كذلك لجواز أن يريد بقوله ترجعون المخاطبين لا نفسه » (51) .

وقد ذهب البعض في تأييد وجود الالتفات في هذه الآية إلى التأويل فذكر أن ضمير الخطاب في قوله « تُرْجَعُونَ » يتضمّن ضمير المتكلم في « فَطَرَنِي » على أساس أن العبد فردّ من المخاطبين (52) . . .

والموقف في رأينا لا يقبل التأويل لأن الضميرين صريحان في الاتصال بمفسرين مختلفين ، وفي ذلك إخلالٌ بشرط من شروط الالتفات .
أما الشاهد القرآني الثاني الذي لا نرى فيه التفاتاً من التكلم إلى الخطاب فهو قوله تعالى من سورة الأنعام :

« وَأْمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » (الأنعام 71 - 72) .

فقد اعتبروا أن الجملة الواقعة بين « أن » التفسيرية : « وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ » مسندة إلى ضمير الخطاب بعد التعبير بطريقة التكلم . وهي في رأينا جملة مقول القول متعلقة بـ « أُمِرْنَا » ولذلك فهي ليست من الالتفات حسب ما جاء في الفقرة (III . 1 . 3) .

(51) السيوطي - الإتيان ص 85 .

(52) التفتزاني : « المطول على التلخيص - ص 132 - 133 .

III . 1 . 7 والسبب في خلو القرآن من ضربَي الالتفات القائمين على التكلم والخطاب بالتبادل يرجع إلى مقتضيات إنشاء الكلام . فمنشئ الكلام هو المتكلم (أنا) وهو المتصرف في توجيه الخطاب ، وبحسب توجيهه للخطاب يقيم الناس إلى حاضرين مخاطبين وغائبين غير حاضرين فتكون المقابلة الأساسية بين الحضور والغيبة . وهو أمر أقرّه النحاة إذ اعتبروا الضمير خاضعاً لمقولتين متقابلتين هما الحضور والغيبة وهو أمر أكدته الأمثلة القرآنية المتعددة للالتفات بأنماطه الأربعة المثبتة في الجدول .

أما المقابلة بين التكلم والخطاب أي بين عنصري الحضور فهي مقابلة ثانوية ، إذ لا يمكن للمتكلم وهو مولد المقابلات أن يصبح مخاطباً كما لا يمكن العكس إلا بتأويل شديد وليس عادياً (53) إن المتكلم حاضرٌ باعتباره محدثاً للقول وهو الذي يولد المقابلات في مستوى الضمير (54) بالطريقة التي يوضحها التمثيل التالي :

الضمير

غائب (مقابلة أساسية) .

حاضر

مخاطب (مقابلة ثانوية)

متكلم

إن المتكلم (أنا) ثابتٌ لأنه محدث القول ، والشخص بالنسبة إليه إما حاضرٌ (أنت) أو غائبٌ (هو) ، وبين (أنت) و(هو) تكون المقابلة الأساسية .

(53) ولا يكون ذلك إلا في ما يسمى بالتجريد (انظر الإحالة رقم 7) .

(54) استفدنا في تبين المقابلات بين الضمائر من كتاب :

III . 2 . عودة ضميري الالتفات على مفسر مخصوص .

III . 2 . 1 . الالتفات ظاهرة نصية إبلاغية تقوم على التصرف في الضمير على خلاف ما يقتضيه ظاهر التركيب . والضمائر من معوضات الاسم ، خاضعة لمقولات الجنس والعدد والحضور والغيبة ، ولكنها مع ذلك خالية في ذاتها من الدلالة المعجمية (انظر الفقرة II . 1 . 1 .) . ولا تكتسب الدلالة إلا داخل النص بإرجاعها إلى الاسم الذي تعوضه أي المفسر . ودراسة الالتفات بطرقه الأربع الواقعة في القرآن تتوقف على تحديد المفسر وضبط الضمائر المستخدمة للتعبير عنه ضمن النص .

يرتبط ضميراً الغيبة والخطاب المعتمدان في أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والعكس ارتباط تلازم أو يكاد بمفسر واحد هو أعداء الإسلام . فقد ذكر هؤلاء اثنتين وأربعين مرة من مجموع السياقات الأربعة والخمسين التي حصل فيها الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وثمانين وعشرين مرة من مجموع السياقات السبعة والثلاثين التي ورد فيها الالتفات من الخطاب إلى الغيبة . وفي الجدول التالي بيان للسياقات التي ورد فيها الأسلوبان المذكوران :

الالتفات	الالتفات من الغيبة	الالتفات من الخطاب
المفسر	إلى الخطاب	إلى الغيبة
أعداء الإسلام	42	28
الله	1	—
الرسول	2	1
عامة الناس	6	3
عامة المؤمنين	2	5
عائشة وحفصة	1	—

يستتج من هذا الجدول أن الالتفات من الخطاب الى الغيبة والالتفات من الغيبة الى الخطاب أسلوبان متقابلان من حيث تركيبة العناصر وترتيبها ، ولكنها متماثلان في ارتباطهما في القرآن بسياق الحديث عن أعداء الاسلام غالباً ، وبسياقات أخرى ثانوية (الله - الرسول - عامة الناس . . .) .

إنّ القرآن بأعتبره حدثَ قولٍ هو كلامٌ متكلمٌ موجهٌ إلى مخاطب ، والمخاطب هو مجموعة من الأفراد ، يجمعهم الانتساب الى الإسلام ، ومن لا ينتسب إلى الاسلام لا ينتسب إلى مجموعة المخاطب فهو بمنزلة الغائب والحديث عنه هو من قبيل إعلام الحاضر عن الغائب . وهكذا فإنّ القرآن يخاطب المجتمع المسلم عن غائب هو أعداء الإسلام بطريقة الإعلام ثم ينقلب الإعلام تهديداً وبما أن التهديد عملٌ ينجز لحظة القول أصلاً ، فإن التحول من الغيبة إلى الخطاب غرضه إنجاز التهديد لا الإعلام بوقوعه . وقد يتغير الترتيب فيكون التهديد أولاً والاعلام ثانياً .

III . 2 . 2 . أمّا ضمير التكلّم والغيبة المؤسّسان للالتفات من الغيبة إلى التكلّم وعكسه ، فهما يعودان أصلاً على مفسّر واحد هو الله . ولا يمكن أن يكون المفسّر غيره تعالى لأن المتحدث بضمير التكلّم في القرآن هو الله دائماً ولا يكون غيره إلّا في أسلوب الحكاية بعد القول أو ما في معناه وقد اعتبرناه خارجاً عن الالتفات (انظر فقرة III . 1 . 2) .

إن ضمير المتكلم بالنسبة إليه تعالى هو ضمير العظمة (نحن - نا) . أمّا ضمير الغيبة فقد عبّر عنه الاسم الظاهر في جلّ الأمثلة تقريباً وقد تمثّل ذلك في إسمين من أسمائه تعالى هما : الله - و- الرب .

قال تعالى من سورة النحل :

وَإِذْ بَدَلْنَا آيَةَ مَكَانٍ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ (النحل 101) .

وقال في سورة طه :

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ (طه - 127) .

III . 2 . 3 . القرآن نصّ والنصّ مهما كان هو حدث لفعل القول .
وفعل القول قد يكون ظاهراً وقد يكون ضمناً . والقائل هو المتكلم سواء
أسند إليه فعل القول (قُلْتُ) أو أسند إلى غيره من مخاطب (قُلْتَ) أو غائب
(قَالَ) . والمتكلم بأعتباره مُنْشِئاً للقول ومولّداً للكلام أي خالقاً يستثنى من
الالتفات وإلاّ كان الكلام كلّ التفاتاً من التكلم إلى الخطاب ومن التكلم إلى
الغيبة . ولا يُستثنى المتكلم بأعتباره مسنداً إليه كالمخاطب والغائب . ولهذا
يكون الالتفات قائماً بين عناصر في اللغة لا خارجها . وهذه العناصر هي الله
(تكلم/غيبة والعكس) والكفار والمؤمنون والناس والرسول (غيبة/خطاب
والعكس) .

III . 3 دلالة الخطاب والغيبة :

III . 3 . 1 الأصل في الالتفات من الغيبة إلى الخطاب أن يجري
الأسلوب على طريقة الغيبة لمناسبتها لأسلوب الحكاية والإعلام والسرد . لقد
دأب القرآن على حكاية أحوال أعداء الإسلام وفضح أعمالهم ومكائدهم
وإعلام الرسول والمؤمنين بحقيقتهم . وكثيراً ما نزلهم منزلة الحاضرين فتحوّل
إلى مخاطبتهم خطاباً مباشراً فيه تهديد وتقريع على وجه صريح . والتحوّل من
الغيبة إلى الخطاب راجع إلى كون التهديد عملاً ينجز لحظة القول أصلاً وليس
هو إعلاماً بوقوعه . جاء في سورة الصافات :

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا
أَهْتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ . إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا
الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (الصافات 35 إلى 38) .

III . 3 . 2 أما في الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فإنّ التعبير يجري في الأصل على أسلوب الخطاب إذ يخاطب الله أعداء الإسلام خطاباً مباشراً فيه أحياناً تنبيه لفظاعة جرائمهم وإبطالاً لترهاتهم ودعوة إلى التوبة والغفران ، وفيه أحياناً أخرى توبيخ وتقريع وتهديد بسوء المصير ، وفي كل هذه الحالات يكتسي الخطاب لهجة شديدة صريحة تتناسب والمقام .

وفجأة تتحوّل المواجهة الشديدة إلى تحقير وإذلال وإهانة وذلك بالإعراض عن مخاطبة الأعداء وبالحدّث عنهم بطريقة الغيبة وإبعادهم عن مقام الحضور إذ هم ليسوا بأهل للخطاب . قال تعالى :

« هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . إِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (يس 63 - 64 - 65) .

بدأت هذه الآيات بخطاب مباشر للكفار وهم على شفير جهنّم والقصد منه التهديد والوعيد . وتلا الخطاب إخباراً بطريق الغيبة عن فضيحتهم يوم القيامة على رؤوس الإشهاد والغرض منه إذلالهم وتشهير أمرهم وحكاية حالهم لغيرهم قصد العبرة .

III . 3 . 3 أما إذا ما تعلّق الخطاب بغير أعداء الاسلام وأمثله قليلة في القرآن فإن غرض الانتقال من الغيبة إلى الخطاب هو المصارحة اللطيفة باللوم الخفيف والعتاب الرقيق ، نحو قوله تعالى في سورة « عبس » متحدثاً بأسلوب الغيبة عن إعراض الرسول عن عبد الله بن أمّ مكتوم ثم معاتباً له عتاباً مباشراً على طريقة المشافهة بناءً لخطاب قصد تنبيهه إلى واجب العناية بكل من يقصده مهما كانت منزلته . والتنبيه واللوم كالوعيد عمَلٌ ينجز لحظة القول أصلاً .

عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي أَوْ يَذْكُرُ فَتَنْفَعُهُ
الذِّكْرَى (عبس من 1 إلى 4) .

ومن هذا القبيل خطاب الله بطريق الالتفات لكل من حفصة وعائشة
قصد اللوم والعتاب على ما بدر منهما من إفشاء لسر رسول الله ، وهذا الغرض
مناسب لتحويل أسلوب الكلام من الغيبة إلى الخطاب لأن العتاب عمل ينجز
لحظة القول أي حضوراً :

وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَرَثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ
عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ . فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي
الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ
هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرُ
(التحریم 3 - 4) .

III . 3 . 4 . وقد يجري الحديث عن المؤمنين الصادقين بطريق الغيبة
ثم يعدل إلى طريق الخطاب المباشر على غير ما يقتضيه السياق وذلك لما في
الخطاب من التشريف والتزليل منزلة الرفعة والاعتبار . قال تعالى متحدثاً عن
المؤمنين الأوفياء حين بايعوا الرسول « بيعة الرضوان » :

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي
قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ
اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ
أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (الفتح
18 - 19 - 20) .

استعمل في هذه الآيات ضمير الغيبة الجمع المذكر العائد على المؤمنين
ثم عدل عنه إلى ضمير الخطاب لأن المؤمنين أهل لمقام الحضور والتشريف
والامتنان جزاء إخلاصهم للرسول .

II . 3 . 5 . رأينا أن الانتقال من الغيبة الى الخطاب هو ارتقاء بأسلوب الكلام إلى المباشرة والمصارحة لإفادة التهديد أو العتاب أو التشریف ، ويتقوى هذا الغرض بالجمال الانشائية أو بالجمال الخبرية المؤكدة .

فمّا جاء التفاتاً مدعماً بالاسلوب الإنشائي قوله تعالى :
وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (النمل 90) .

والإنشاء طلب والطلب يقتضي الحضور وهو حضور يوفره أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

ومّا جاء التفاتاً في جمل خبرية مؤكدة قوله تعالى من سورة يس وفيه تأكيد بالحصص :

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (يس 53 - 54) . وكذلك قوله تعالى من سورة مريم وفيه تأكيد للجملة الخبرية بـ « لقد » :
وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا . (مريم 88 - 89) .

III . 3 . 6 . وردت الجملة المسندة إلى ضمير الغيبة في الالتفات من الخطاب إلى الغيبة خبرية في الغالب ومؤكدة في بعض الأمثلة بالحصص خاصة وذلك تدعيماً للدلالة الغيبة على الإخبار والحكاية . ولم تأت إنشائية إلا نادراً . قال تعالى في سورة الأنعام :

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ . وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (الانعام 3 - 4) .

وقال في سورة الإسراء :

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا .
(الاسراء 40 - 41) .

إنَّ أصل التركيب في المثالين على أسلوب الخطاب وقد صيغ في جمل خبرية أو إنشائية . أما الانتقال الى الغيبة فقد صيغ في جمل خبرية مؤكدة بالحصص (مَا . . . إِلَّا) ليناسب الغاية من الالتفات وهي الإخبار والحكاية .

III . 4 . دلالة التكلم والغيبة :

III . 4 . 1 . يتصل التكلم والغيبة في أسلوبَي الالتفات المؤسسين عليهما بسياق وحيد هو حديثه تعالى عن ذاته . ولئن كان الالتفات من التكلم إلى الغيبة وإرداً في الأصل بضمير العظمة (نَا - نحن) فإنَّ التحوّل عنه كان إلى الاسم الظاهر في جلّ الأمثلة تقريباً . والاسم الظاهر هو - الله - تارة - الربّ - تارة أخرى ، قال الله تعالى في سورة النحل :

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ (النحل 101) .

إنَّ العدول عن الضمير إلى الاسم الصريح - الله - المعتبر في حكم الغيبة راجع إلى ما في اسمه تعالى من قوّة الدلالة . فلفظ - الله مشتق من أَلِه (بفتح العين) بمعنى عبَدَ ، وأصله اسم الجنس - الإله - بالتعريف ، حذفت منه الهمزة لكثرة استعمال هذا اللفظ ، وززته في الأصل فِعَال (بكسر الفاء) بمعنى مفعول مثل كِتَاب . وعلى هذا فالله عَلَّمَ خاص دال على ذاته تعالى بمعنى

المعبود الذي لا يُعبدُ سواه (55) وفي إظهاره بعد ضمير التكلم إلقاء للروعة والمهابة في القلوب باعتباره المعبود الخلق بالعبارة المبطل لألهة المشركين :
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ . وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (آل عمران 140) .

III . 4 . 2 . والاسم الظاهر الثاني الذي تحقق به الالتفات انتقالاً من التكلم إلى الغيبة هو - الرب - وهو اسم مشتق من رَبَّه بمعنى ملكه وربَّاهُ وسأسه . وهو ربّ بمعنى مالك وسيّد ومربّ ومدبّر وسائس . وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو ربّ الأرباب أي مالك الملوك (56) .
وقد استعمل هذا اللفظ في الالتفات من التكلم إلى الغيبة مضافاً إلى ضمير الخطاب العائد على الرسول (ﷺ) تعظيماً لشأنه إذ هو مربوبٌ لله أي مملوك له فهو في رعايته :

وَأَنَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (الحجر 23 - 24 - 25) .

وأضيف لفظ - الرب - في بعض أمثلة الالتفات إلى إبراهيم وأيوب ومريم تنوياً بشأنهم وتأكيداً لرعايته تعالى لهم :
- وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا أَنَّهَا بَارَأَةٌ مِنْ ذَلِكَ (التحريم 12) .
- وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ عَادَى رَبَّهُ (ص 41) .

(55) لسان العرب المجلد 13 ص 467 .

(56) لسان العرب المجلد 1 ص 399 .

وأضيف اللفظ كذلك إلى من كفر توبيخاً وتقريعاً على كفره بالرب
المالك له المدبر لأمره :

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ (طه 127) .

إن الانتقال من تعبيره تعالى بضمير التكلم إلى الاسم الصريح هو
ضربٌ من الالتفات اعتمده القرآن لقوة الدلالة المستفادة من اسميه تعالى :
الله - الرَّبِّ . وهذان الاسمان هما المعتمدان كذلك في أسلوب الالتفات من
الغيبة إلى التكلم في أكثر الأمثلة ، قال تعالى من سورة المائدة :

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا
(المائدة 12) .

وقال في سورة الطور :

وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ
(الطور 48) .

III . 4 . 3 وقد جرى الانتقال من الغيبة إلى التكلم في سياقات عديدة
منها سياق بيانه تعالى لقدرته على الصنع البديع وتعداده لآيات فضله على
عباده :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا
(فاطر 27) .

ومنها السياق الخاص بتهديد الكفار :

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ
(الغاشية 24 إلى 26) .

ومنها كذلك سياق التبشير :

سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي
أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى سَتُفْرُتُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّهُ يَعْلَمُ
الْجُحْرَ وَمَا يَخْفَى وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (الأعلى من 1 إلى 8) .

إن هذا المقامات تنبئ عن عظمة الله وجلاله وقد ناسبها التعبير بضمير
المتكلم الجمع بعد العدول عن ضمير الغيبة .

III . 4 . 4 . وقد سبق الانتقال الى التكلم في اكثر الامثلة في جمل
فعلية مصدرة بأفعال ماضية تدل على القدرة اللامحدودة نحو : بعثنا - أخرجنا
- رَزَقْنَا - آتَيْنَا - أَوْحَيْنَا - قَبَضْنَا - أَنْزَلْنَا - سَقْنَا - زَيَّنَّا - خَلَقْنَا - حَاسَبْنَا . . .
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ
(القمر 10 - 11) .

وتتصافر في مثل هذه الآيات الأفعال وضمير التكلم الذي أسندت إليه
في الدلالة على عظمة الله :
« وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا
(المائدة ، 12) .

- أَمَّنْ تَخْلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ
ذَاتَ بَهْجَةٍ (النمل 60) .

III . الالتفات تجديد لرتابة الأسلوب :

III . 5 . 1 . الالتفات انتقال مفاجيء من تعبير رتيب درج عليه نظم
الكلام وأنس إليه المتلقي إلى تعبير جديد على غير ما يتوقعه . فبالإضافة إلى
فائدته المخصوصة بكل مقام رأى فيه البلاغيون والزخمشري خاصة فائدة عامة

مشتركة بين جميع ضروبه وهي تنشيط السامع وإثارة اهتمامه لأن « الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان أدخل في القبول عند السامع وأحسن نظرية لنشاطه وأملاً بآستدرار إصغائه » (57) من إجراءاته على أسلوب واحد . وتنشيط السامع وتحريك حسّه وإيقاظ إصغائه هي من آثار الأسلوب الأدبي الرفيع ، وتحصل في الالتفات بتجديد النسق الرتيب المتولد عن استعمال ضمير واحد على مدى جمل كثيرة . وذلك باستخدام ضمير آخر بدله بطريقة مفاجئة . ثم يعود النسق بسرعة الى رتبته الأصلية بمجرد الرجوع إلى الضمير الأصلي وهو أمرٌ يلاحظ في جل الأمثلة تقريباً .

فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (محمد 21 - 22 - 23) .

وردت هذه الآيات في سياق الحديث عن المنافقين (الذين في قلوبهم مرض) بضمير الغيبة ثم عدل عن الغيبة إلى الخطاب المباشر عدولاً سريعاً لغرض مخصوص هو تأكيد التوبيخ وتشديد التقرير . ثم أرجع الكلام إلى أسلوب الغيبة الأصلي وتمادى التعبير به في الآيات اللاحقة . ومعنى هذا أن الالتفات بصفة عامة هو قطع مفاجيء للتعبير الرتيب يكون من آثاره إيقاظ المتلقي وتحريكه .

III . 5 . 2 . ويكون القطع المفاجيء للرتابة شديداً في ما اصطالحنا على تسميته بالالتفات الممتد (57) لأن حصول الالتفات أكثر من مرة في النصّ

(57) السكاكي - مفتاح العلوم ص 86 .

- عز الدين اسماعيل - جماليات الالتفات - ص 35 . وهو لا يرى هذا الرأي الذي ذهبنا إليه .

(58) انظر الفقرة (II . 4 . 2) من هذا البحث .

الواحد يحدث هزّات متتالية في النسق الرتيب ؛ قال تعالى في سورة الصافات :

أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ يَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ اصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ، فَاتُّوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبَّحُونَ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (الصافات من 151 إلى 170) .

في الآيات السابقة حديث عن المكذّبين من كفار مكّة الذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله وأنها ولدت من التزوّج بينه تعالى والجنّة . وهذا الحديث ورد على التداول بين أسلوب الغيبة الأصلي وأسلوب الخطاب المفاجيء الذي حصل به الالتفات وقد امتد هذا التداول على مدى عشرين آية استخدمت فيها الغيبة تارة والخطاب تارة أخرى .

إنّ ظاهرة الالتفات الممتدّ تنوع الكلام تنوعاً سريعاً وتضمن يقظة المتلقّي ، وفي ذلك تكمن إحدى فوائد الالتفات الرئيسية . والأمر نفسه يحصل في الالتفات المتداخل (59) :

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً . إِنَّا لَمَّا طَغَى الْهَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (الحاقة - 10 - 11) .

(59) انظر الفقرة (II . 4 . 2) من هذا البحث .

لقد تضمنت الآيتان ضربين من الالتفات . الأول من الغيبة (هُم أي العصاة) إلى الخطاب (كُم) ، والثاني من الغيبة (رَبِّ - أَخَذَ) إلى التكلم (إِنَّا - حَمَلْنَا) . وهذان الضربان المتداخلان يغيّران نسق الخطاب تغييراً كاملاً .

IV الخاتمة

IV . 1 . انطلقنا في هذه الدراسة من مفهوم القدامى للالتفات ، وهو العدول عن ضمير أصلي إلى ضمير آخر يشترك وإياه في العودة على مفسّر واحد . وانتهينا إلى أن الالتفات مظهر من التغير non identité في علاقة المضمرة بالأسماء الظاهرة . فأصل التركيب أي في بنيته العميقة إنما يكون بالاسم بإظهاره مرّات متعاقبة في النص الواحد . إلا أن هذه البنية العميقة غير ممكنة إلا في حالات نادرة من التأكيد . لهذا تقوم مقامها في التعبير العادي بنية سطحية يُعوّض فيها الاسم الظاهر اجتناباً للتكرار وهي حالة تجانس اعتباراً إلى أن الضمير لا يماثل الاسم تماماً بل يجانسه في الجنس والعدد . وقد تظهر في النص بنية سطحية ثانية يعوّض فيها الاسم بضمير ثان يغيّر الضمير الأصلي في الحضور أو الغيبة وفي هذه البنية يتحقق الالتفات .

فالالتفات إذن تجوّز في استعمال الضمير بمعنى أنه مظهر من تغير الضمير مع الاسم الظاهر ناتج عن مظهر من تجانسهما . والمظهران تعويض لبنية الأصل .

IV . 2 . ويبدو أن الالتفات بهذا المفهوم هو الشائع عند الجمهور ، وأن علماء البلاغة جميعهم لا يختلفون فيه . وإنما يختلفون في ملحقات أضافها

بعضهم إليه ، من ذلك أنهم عدّوا من الالتفات التصرف في الفعل من جهة الزمن ، والتصرف في المعنى بالانصراف إلى غيره وقطع التواصل ، وتقوية المعنى بالدعاء أو المثل (60) . . . وأغرب ما اعتبر التفاتاً قولهم :

« أنا زيدٌ وأنت عمرو » وفيه التعبير عن المعنى الواحد بالتكلم أو الخطاب تارة وبالأسم الظاهر تارة أخرى .

وكذلك قولهم : « يا زيدُ قمُ ويا رجلاً له بصرُ خذُ بيدي » لأن فيه انتقالاً من الخطاب إلى الغيبة .

وأيضاً قولهم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » لأن القياسَ آمَنُتُمْ . . . (61) واعتبر من الالتفات قول الحجاج بن يوسف لأحد أعوانه : أنظرُ من يتغذى معي وأسأله عن الأمر » لأن الجملة الاستثنائية مسندة إلى المتكلم في حين أن الأولى الابتدائية مسندة إلى المخاطب .

وعلى العموم فقد اعتبر بعضهم التفاتاً كل عدول عن معنى إلى آخر ، أو عن تركيب إلى غيره ، فينجرّ عن ذلك اعتبار الالتفات من أهم الظواهر البلاغية في الكلام واعتبار الكلام سلسلة متوالية من الالتفاتات .

ويبدو أن هذه المفاهيم - الشائع منها والملحقات به - قد ظهرت في مراحل مختلفة من تاريخ البلاغة العربية وأن أقدمها ربّما رجع إلى قدامة بن جعفر في نقد الشعر (62) . إن هذه الناحية المتعلقة بالمصطلح تاريخياً ومفهوماً تحتاج إلى دراسة مستقلة . ونحن لم نطمح في هذا البحث إلى دراسة نشأة الالتفات وتطوره وتعدّد مفاهيمه ، وإنما كانت غايتنا الاهتمام بالالتفات في

(60) انظر المقدمة (الفقرة I . 2) ص 1 .

(61) التهانوي - كشف ص 1289 .

(62) ابن أبي الإصبع : بديع القرآن ص 42 مكتبة النهضة - مصر ط 1 - 1957 .

مفهومه الشائع ، ودراسة التركيب الذي يقوم عليه ، وتتبع نماذجه في النص القرآني لكثرتها فيه . والتعرّف على المقامات التي تقتضيه .

IV . 3 . واعتماد النصّ القرآني في هذا البحث يسرّ لنا التفتن إلى جوانب هامة في الالتفات . من ذلك أنه على أنواع ، فهو خاطف يظهر مرّة واحدة فحسب ، فيقطع رتابة النص فجأة ، وهو ممتدّ يشغل آياتٍ طويلاً متعاقبات ، فتتكسر رتابة النص أكثر من مرّة وذلك بتناوب الضمير الأصلي والضمير الطارئ في انتظام عجيب . وهو كذلك متداخل تتحقّق طريقتان من طريقه في السياق الواحد .

والتطبيق على النصّ القرآني أظهر أن طرق الالتفات متفاوتة في الاستعمال وأن أهمها ما اعتمد على الغيبة والخطاب أو الخطاب والغيبة لأهمية المقابلة بين المقولتين وقد قدّمت كتب البلاغة طرق الالتفات الست مساوية بينها في حين أنها في الاستعمال لا تتجاوز الأربع وأن اثنتين منها (خطاب/تكلم وتكلم/خطاب) ثانويتان .

وأكثر الطرق استعمالاً هو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ويعود السبب في رأينا إلى ملائمة هذا الأسلوب لموضوع أساسي طرحه القرآن وهو موضوع الكفر والكفار . لقد نزل القرآن على محمد (ﷺ) في قوم من الكفار بلغت عداوتهم للإسلام وأتباعه حدّ الضراوة . ولذلك فقد أخبر عنهم وشهر بهم بأسلوب الغيبة المناسب للحكاية والإخبار والسرد . وبما أن الإسلام دين جزاء وعقاب فقد تجاوز التشهير بالكفار إلى التهديد والوعيد ، وتطلب ذلك تحويل ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب لأن التهديد يُنجز لحظة القول وهو مواجهة مباشرة رخطاب شديد اللهجة منه تعالى إلى من عصى أمره وحارب دينه .

وقد ورد الإخبار والتهديد في أسلوب إنشائي أو خبري مؤكّد ، ذلك أن الإخبار إعلام بأمرٍ خلا ذهن السّامع منه فيحتاج إلى التأكيد والتهديد عزم والعزم لا يكون بدون تأكيد .

الشاذلي الهشري